

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية

لفضيلة الدكتور خالد بن سليم الشراري^(١)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فلا ريب أن الحرب بغیضةٌ مذمومةٌ؛ لما يترتب عليها من آثار وخيمة تشمل أغلب نواحي الحياة؛ لأن الحرب تُغيِّرُ - لاسيما اليوم - معالم الكون، وتثير الرعب في النفوس، بل تزهقها، وتبدل الأمن خوفاً، والطمأنينة قلقاً، مع ما يقترن بها من تخريب الحضارة، وتدمير المدن، وإبادة السكان، والفساد والإفساد.

وأن السلام محبوب محمود؛ لما يترتب عليه من أمور، هي ضد ما يترتب على الحرب من الأمن، ورغد العيش، وطيب الحياة، وتبادل المنافع، والتعاون على التقدم في جميع المجالات.

ولهذا سعى الإسلام إلى السلام مع أعدائه، وعظَّم مكانته، وسعى إلى

(١) وكيل كلية المجتمع بالقريات، جامعة الجوف.

تحقيقه بشتى الوسائل، ورتب الأجر العظيم لمن سعى في تحصيله، كما توعد من سعى في زعزعته بالعذاب الأليم والخزي في الدنيا والآخرة؛ لكونه مطلباً إنسانياً ملحاً في كل زمان ومكان، ولما يترتب على فقدته من المساوئ التي يرفضها كل عقل راجح فضلاً عن الشرع. والسلام الأمثل الذي يطلبه الناس ويسعون لتحصيله لا يمكن أن يبين حقيقته وأبعاده إلا العالم بحالهم، وما يصلح لهم، وما يضرهم، وهو الله تعالى، وقد بينه فيما أنزله على نبيه محمد ﷺ، وبيان ذلك كتبت هذا البحث الذي هو بعنوان (السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية).

وتكمن أهمية هذا البحث فيما يلي:

١- بيان مفهوم السلام الذي دعا إليه الإسلام، وتفنيد الشبه التي أثيرت حول الإسلام، من كونه انتشر بحد السيف، وأنه وسيلة لقهر الشعوب، وأن علاقات المسلمين بغيرهم علاقات عدائية، وغير ذلك مما ينشره أعداء الإسلام، إما بسبب الجهل بحقيقة دعوته، أو بقصد تشويهه.

٢- حاجة الناس إلى السلام عموماً، وحاجة المسلمين إليه خصوصاً؛ لأنهم لن ينعموا في عيشهم، ولن تطمئن نفوسهم إلا به، ولهذا ينشده

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
كل الناس.

٣- ما يترتب على فقد السلام من الأزمات السياسية والاقتصادية والصحية والإنسانية وغيرها، وكذلك المخاطر والكوارث العظيمة، لاسيما في هذا العصر الذي تقدمت فيه التقنية، وتطورت فيه أسلحة الدمار الشامل، وتنوعت فيه وسائل القتال، وهذه يترتب عليها من الدمار العظيم ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

- وقد جعلت هذا البحث من: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.
- المقدمة: وتشمل: أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وبيان خطة البحث، والمنهج المتبع في دراسته.
 - التمهيد: في تعريف السلام وبيان أعداء الإسلام.
 - المبحث الأول: السلام مع أعداء الداخل
 - المبحث الثاني: السلام مع أعداء الخارج
 - الخاتمة: وتشتمل على أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.
- أما المنهج المتبع في دراسة هذا البحث فسيكون -إن شاء الله تعالى- على ضوء النقاط التالية:

- ١- الاستقراء التام لمصادر كل مبحث قدر المستطاع.
- ٢- الاعتماد عند الكتابة على المصادر الأصلية في كل مسألة بحسبها.

٣- التمهيد للمسألة بما يوضحها مع التمثيل - إن احتاج المقام لذلك - .
٤- أقوم بكتابة معلومات البحث بأسلوبى، ما لم يكن المقام يتطلب ذكر الكلام بنصه فإنى أذكره بنصه، مع التركيز على موضوع البحث وتجنب الاستطراد.

٥- أعترف بالسبق لأهله، فى أى معلومة سبقنى إليها غيرى، وذلك بنسبتها إلى صاحبها فى صلب البحث، مع عزوها إلى مصدرها فى الهامش، أو أكتفى بعزوها إلى مصدرها فى الهامش، فإن كنت أخذتها بنصها عزوتها إلى المصدر مباشرة دون أن أسبق ذلك بـ (انظر)، وإن كنت أخذتها بمعناها عزوتها إليه مسبقاً ذلك بـ (انظر).

٦- بيان سور الآيات وأرقامها.

٧- تخريج الأحاديث، فإن كان الحديث فى الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بتخريجه منهما، وإن لم يكن فى أى منهما خرّجته من المصادر الأخرى المعتمدة، مع ذكر ما قاله أهل الحديث فيه.

٨- التعريف بالمصطلحات وشرح الغريب.

٩- ترجمة الأعلام ترجمة مختصرة، ما عدا الصحابة والمعاصرين.

١٠- العناية بقواعد اللغة العربية، والإملاء، وعلامات الترقيم.

أسأل الله تعالى أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه، موافقاً لمرضاته،

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
مقرباً لديه، نافعاً لعباده، كما أسأله أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما
علمنا، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده
ورسوله وخاتم أنبيائه نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم
بإحسانٍ إلى يوم الدين.

تمهيد: في تعريف السلام، وبيان أعداء الإسلام

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تعريف السلام.

أولاً: تعريفه في اللغة: السلام لغة: اسم مصدر من سَلَّمَ يَسْلَمُ تسليماً، كالكلام والطلاق، وهو بمعنى النجاة والتخلص مما لا يُرغب فيه، يقال: (سلم من الأمر) إذا نجا منه، وهذه المادة (السين واللام والميم) تفيد معنى التخلص من الآفات والنجاة منها، فهو بمعنى السلامة، وكذا ما اشتق من هذه المادة فهو يدل على هذا المعنى، ومن ذلك السَّلَم: وهو ما يتوصل به إلى الأماكن العالية؛ لأن الصاعد عليه أو النازل يرجى له السلامة به، ومن ذلك أيضاً: السَّلام: وهو الحجارة الصلبة؛ سميت بذلك لسلامتها من الرخاوة فتكون بذلك أبعد شيء في الأرض من الفناء والذهاب؛ لشدتها وصلابتها^(١).

ثانياً: تعريفه في الشرع: يُطلق لفظ (السلام) في النصوص الشرعية ويراد به عدة أمور، ترجع كلها - عند التأمل - إلى معنى مادة الكلمة، وهو البراءة من العيوب، ومن هذه الإطلاقات:

الإطلاق الأول: يطلق ويراد به اسم الله تعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة ٣/ ٩٠، أساس البلاغة ٣٠٦، لسان العرب ١٢/ ٢٨٩.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ﴿١﴾؛ سمي بذلك سبحانه
لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء (٢).

الإطلاق الثاني: يطلق ويراد به السلامة من الآفات، وهو المعنى
الأصل، ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى
الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٣)، أي: قولاً يسلمون
فيه من مقابلة الجاهل بجهله (٤).

الإطلاق الثالث: يطلق ويراد به التحية، وهو قولنا: (السلام عليكم)
ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ
مُؤْمِنًا﴾ (٥)، و(السلام) الوارد في التحية إما أن يكون المراد به: اسم الله
تعالى، فيكون المعنى: اسم الله عليكم، وجاء اسم السلام في التحية دون
بقية أسمائه سبحانه لتضمنه معنى السلامة، أو يكون المراد به: السلامة
نفسها، فيكون المعنى: السلامة عليكم، فكان المسلّم يقول للمخاطب:

(١) سورة الحشر، من الآية (٢٣).

(٢) انظر: أحكام أهل الذمة ١/١٩٣، فتح الباري ١١/١٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية (٦٣).

(٤) انظر: تفسير السعدي ص ٥٨٦.

(٥) سورة النساء، من الآية (٩٤).

لك مني السلامة، فلا تخشى شيئاً، فيرد عليه الآخرُ بالمثل^(١).

الإطلاق الرابع: يطلق ويراد به الصلح والمهادنة، وضده الحرب؛ ولهذا وردا متقابلين في نصوص كثيرة، منها: قول النبي ﷺ: «اللهم اجعلنا هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، حرباً لأعدائك، وسِلماً لأوليائك»^(٢). وسمي سلاماً لأنه يحصل به سلامةٌ من القتال وتبعاته.

وقد ورد (السلام) بهذا الإطلاق بالفاظ أخرى مرادفة له، ومشتقة من نفس مادته، منها: السَّلم - بفتح السين وسكون اللام -، والسَّلم - بكسر السين وسكون اللام -، قال ابن منظور^(٣): (السَّلم والسَّلم: الصلح، يفتح ويكسر ويذكر ويؤنث)^(٤). فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾^(٥)، ومن الثاني قوله ﷺ في الحديث السابق: «حرباً

(١) انظر: النهاية لابن الأثير ص ٤٤١، أحكام أهل الذمة ١/ ١٩٥.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب منه، ٥/ ٤٨٣، (٣٤١٩)، وصححه ابن خزيمة في صحيحه ٢/ ١٦٦.

(٣) هو: محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري المصري الإفريقي، من أئمة اللغة والتاريخ، عمل قاضياً فترة من الزمن، كان عالماً بالفقه والتفسير، من أهم مصنفاته: لسان العرب، مختصر تاريخ دمشق، مختصر الأغاني، لطائف الذخيرة، وغيرها، توفي سنة ٧١١ هـ. انظر ترجمته: الدرر الكامنة ٤/ ٢٦٢، فوات الوفيات ٢/ ٥٢٤، بُغية الوعاة ٢/ ١٩٥.

(٤) لسان العرب ١٢/ ٢٩٢.

(٥) سورة الأنفال، من الآية (٦١).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
لأعدائك، وَسَلِّمًا لأوليائك». ومنها: السَّلَام - بفتح السين واللام -،
ومنه قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوا كُفُّوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ ^(١)، أي:
المهادنة والصلح ^(٢).

وبهذا يتبين لنا أن السلام من الألفاظ المشتركة، والذي يحدد معناه
إذا ورد هو السياق، والسلام الذي نحن بصدد بحثه هو الذي بمعنى
الإطلاق الرابع، وهو المراد عند إطلاقه في العصر الحاضر، لاسيما في
وسائل الإعلام.

(١) سورة النساء، من الآية (٩١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٥٣٥ / ١.

المسألة الثانية: بيان أعداء الإسلام

الإسلام يواجه صنفين من الأعداء، صنف يمثل الخارجون عليه من المنتسبين إليه، وهم أعداء الداخل، وصنف يمثل الكفار الذين لا يدينون به، وهم أعداء الخارج.

فأما الصنف الأول فهم قوم من المسلمين يخرجون على ولي الأمر، يريدون خلعه أو تحقيق مطلب ما؛ لتأويل سائغ، ولهم منعة وشوكة، وهم إما أن يكونوا من أهل الحق الذين لا يكفرون بالكبيرة، كخروج أهل الجمل وأهل صفين على علي عليه السلام، وإما أن يكونوا من أهل الباطل الذين يكفرون بالكبيرة ويستحلون بذلك دماء المسلمين وأموالهم، كخروج أهل النهروان (الخوارج) على علي عليه السلام ^(١).

وكلاهما مجانب للصواب؛ لأن إمام المسلمين إذا ثبتت إمامته وجبت بيعته باتفاق المسلمين، سواء ثبتت إمامته بإجماع أهل الحل والعقد من المسلمين، كإمامة أبي بكر رضي الله عنه، أو بعهد إمام قبله إليه، كإمامة عمر رضي الله عنه، حيث عهد إليه أبو بكر رضي الله عنه بذلك، أو بالقهر وقوة السيف، كما لو خرج رجل على إمام فقهره، وغلب الناس بسيفه، حتى أقروا له، وأذعنوا

(١) انظر: البحر الرائق ٥/ ١٥٠، بدائع الصنائع ٧/ ١٤٠، روضة الطالبين ١٠/ ٥٠.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
بطاعته، وبايعوه^(١).

كما أنه يحرم الخروج عليه إلا بشروط خمسة، ذكرت أربعة منها في قول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان)^(٢)، وبيان هذه الشروط كما يلي:

الشرط الأول: أن نعلم علم اليقين أن ولي الأمر وقع في كفر؛ لقوله: (إلا أن تروا)، والمراد بالرؤية هنا: العلم اليقيني، أما مجرد الظن، فلا يجوز معه الخروج عليه.

الشرط الثاني: أن نعلم أن الذي وقع فيه ولي الأمر كفر أكبر، وليس فسقاً؛ لقوله ﷺ: (إلا أن تروا كفراً)، فلو فسق ولي الأمر بالمعاصي فلا يجوز الخروج عليه. قال النووي^(٣) في الحُكَّام: (وأما الخروج عليهم

(١) انظر: حاشية ابن عابدين ١/ ٥٤٩، حاشية الدسوقي ٤/ ٢٩٨، الإقناع للشريني ٢/ ٥٥٠، كشف القناع ٦/ ٣١٠٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها»، ٦/ ٢٥٨٨، (٦٦٤٧)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية...، ١٢/ ٣١٦، (١٧٠٩).

(٣) هو: يحيى بن شرف بن مري، أبو زكريا، ولد بقرية (نوى) من قرى حوران من بلاد الشام، =

وقتلهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين^(١).

الشرط الثالث: أن يكون الكفر الذي وقع فيه ولي الأمر بواحاً؛ لقوله: (إلا أن تروا كفراً بواحاً) أي: صريحاً بيناً ظاهراً معلناً لا يحتمل التأويل، كما لو أذن بمحرم متفق على تحريمه، كالزنى أو اللواط، وأعلن أنه مباح لهم، وأقيمت عليه الحجة، ولكنه أصر، فهذا كفر بواح، وبناء على ذلك: لو فعل ما يحتمل التأويل فلا يجوز الخروج عليه بسببه، بل نوليه ما تولى، كما لو فعل فعلاً نرى أنه كفر، وهو يرى أنه ليس بكفر؛ لشبهة اعتقدها.

الشرط الرابع: أن يكون عندنا دليل قاطع على أن هذا الفعل كفر، بأن يكون دل عليه الكتاب أو السنة أو الإجماع؛ لقوله: (عندكم فيه من الله برهان)، فإن كان الدليل ضعيفاً في ثبوته، أو في دلالته، فإنه لا يجوز الخروج عليه. ومما نقطع بكفره ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢) بقوله:

= ارتحل مع والده إلى دمشق، وفيها تعلم وسمع الحديث، عُرف بالذكاء والفطنة، فقيه، محدث، لغوي، من أهم مصنفاته: المجموع في شرح المذهب، وشرح صحيح مسلم، ورياض الصالحين، وروضة الطالبين، وتهذيب الأسماء واللغات، وغيرها، توفي سنة ٦٧٦ هـ. انظر ترجمته في: طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ١٦٥، طبقات الشافعية للإسني ٢/ ٤٧٦، شذرات الذهب ٥/ ٣٥٤.

(١) شرح النووي على مسلم ٣١٧/ ١٢.

(٢) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، ثم الدمشقي، أبو العباس، تقي الدين، فارس المعقول والمنقول، الفقيه، المحدث، الأصولي، المفسر، الحافظ، =

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
(والإنسان متى حلّ الحرام المجمع عليه، أو حرّم الحلال المجمع عليه، أو بدّل الشرع المجمع عليه كان مرتداً) ^(١).

الشرط الخامس: أن تكون عندنا القدرة على إزاحته، وهذا الشرط لم يذكر في حديث عبادة، ولكنه يؤخذ من عموم النصوص الدالة على تحريم قتل النفس بغير حق، وتحريم إلقاء النفس في التهلكة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ^(٣)، وما جاء في معنى هاتين الآيتين؛ لأنه إذا لم يكن لدينا القدرة على إزاحته قضى علينا، فيكون الخروج عليه حينئذٍ من إلقاء النفس في التهلكة بلا فائدة ^(٤).

= الزاهد، وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره، ولد بحران، ثم تحول به أبوه إلى دمشق، حتى ظهر نبوغه واشتهر، فذهب إلى مصر وسجن مدة، ثم أطلق وعاد إلى دمشق، وهو من أبرز علماء الإسلام على الإطلاق، من أهم مصنفاته: منهاج السنة، ودرء تعارض العقل والنقل، والرد على المنطقيين، والاستقامة وغيرها، توفي سنة ٧٢٨ هـ مسجوناً في قلعة دمشق.

انظر ترجمته في: ذيل طبقات الحنابلة ٤/ ٤٩١، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٩٦، البداية والنهاية ١٤١/ ١٤.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣/ ٢٦٧.

(٢) سورة النساء، من الآية (٢٩).

(٣) سورة البقرة، من الآية (١٩٥).

(٤) انظر هذه الشروط الصالحة الإسلامية ضوابط وتوجيهات لشيخنا/ محمد العثيمين ص ١٦٨.

فإذا توفرت هذه الشروط عزلناه؛ لأن بقاءه مفسدة، وعزله وتولية من هو أعدل منه هو المصلحة، وأما إن تخلفت تلك الشروط أو بعضها فلا يجوز عزله ولا الخروج عليه، بل تجب طاعته في غير معصية الله تعالى، وهذا بالإجماع^(١) ولو بلغ من الفسق ما بلغ؛ لأن إمامته ثبتت شرعاً، فتجب طاعته في غير معصية الله تعالى؛ لقوله ﷺ: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع». قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: (لا، ما صلوا)^(٢). أي: من كره بقلبه وأنكر بقلبه. ونحوه من النصوص الدالة على الصبر على الولاية الظلمة، ولما يترتب على الخروج عليه من الفتن وإراقة الدماء والفساد، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقاءه، وإذا خرج عليه أحد في حال لا يجوز الخروج عليه، فهو عدوٌّ لنا، والواجب علينا حينئذٍ مقاتلته؛ لقوله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»^(٣). وأما الصنف الثاني فهم الكفار الذين لا يدينون بالإسلام، وهم أعداء

(١) انظر: شرح النووي على مسلم ٣١٧/١٢.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع...، ٣٣٨/١٢، (١٨٥٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: إذا بويع لخليفتين، ٣٣٧/١٢، (١٨٥٣).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

لله تعالى ولأوليائه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢).

والكافر لا يخلو من أحوال أربعة: إما أن يكون ذميًّا أو معاهدًا أو مستأمنًا أو حربيًّا، فالأصناف الثلاثة الأول يسمون أهل عهد؛ ومن سواهم أهل حرب، وهم كما يلي:

الصنف الأول: أهل الذمة: وهم الكفار الذين يقرون على كفرهم في بلادنا بشرط أن يبذلوا الجزية، ولهم ذمة مؤبدة، وتجري عليهم أحكام الإسلام؛ لأنهم مقيمون في الدار التي تقام فيها أحكامه.

والصحيح من أقوال أهل العلم أن الجزية تؤخذ من عموم الكفار، وأنها ليست خاصة بأهل الكتاب والمجوس؛ لقوله ﷺ في حديث بريدة رضي الله عنه في وصيته لأمر الجيش أو السرية: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله - إلى أن قال - فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم...» الحديث^(٣)، فقوله ﷺ: «قاتلوا

(١) سورة البقرة، من الآية (٩٨).

(٢) سورة الممتحنة، من الآية (١).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث...، ١٢ / ٥٥، (١٧٣١).

من كفر بالله» عام في كل الكفار، ثم أمره بأن يعرض عليهم الجزية ولم يستثن أحداً.

وأما النصوص الدالة على أنها تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس فلا تقتضي التخصيص؛ لأن ذكر بعض أفراد العام بحكم لا يخالف العام لا يقتضي التخصيص.

الصنف الثاني: أهل الهدنة: وهم أهل الحرب الذين صالحهم إمام المسلمين على إنهاء الحرب بيننا وبينهم؛ لمصلحة يراها، وهم في دارهم، سواء كان الصلح على مال أم على غير مال؛ ولذلك يسمون أهل الصلح، والصلح يسمى الهدنة والمهادنة والمسالمة والمواذعة، ولا تجري عليهم أحكام الإسلام، لكن عليهم الكف عن محاربتنا.

الصنف الثالث: أهل الأمان: وهم أهل الحرب الذين يقدمون على بلادنا من غير استيطان لها، فيعطون الأمان من إمامنا أو من أي فرد منا؛ لقوله ﷺ «ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم»^(١)، والذمة هي العهد، أي: يسعى في إعطائهم عهد الأمان أدنى المسلمين، ولو كان

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم... ٢٦٦٢/٦، (٦٨٧٠)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة... ٢٠١/٩، (١٣٧٠).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
امرأة؛ لقوله ﷺ لأم هانئ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»^(١). قال
ابن حجر^(٢): (ودخل في قوله «أدناهم» - أي: أقلهم - كل وضع بالنص
وكل شريف بالفحوى)^(٣).

وأهل الأمان أربعة أقسام: رسل، وتجار، ومستجيرون، وطالبو
حاجة كزيارة وغيرها، وحكم هؤلاء ألا يؤذوا، ولا تؤخذ منهم الجزية،
ويعرض على المستجير منهم الإسلام والقرآن، فإن دخل فيه فذاك، وإلا
فيبقى على أمانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ
فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾^(٤)، وإن أحب اللحق بمأمنه
ألحق به، ولم يعرض له قبل وصوله إليه، فإذا وصل أهل الأمان إلى
بلادهم عادوا حربيين كما كانوا^(٥). ومن صور الأمان في هذا الوقت

(١) رواه البخاري، كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن، ٣/ ١١٥٧، (٣٠٠٠)، ومسلم،
كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، ٥/ ٣٢٦، (٣٣٦).

(٢) هو: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، إمام بالحديث وعلمه ورجاله حتى
لقب بأمير المؤمنين في الحديث، من أهم مصنفاته: فتح الباري، والدرر الكامنة، وتهذيب
التهذيب، والتلخيص الحبير، وغيرها، توفي سنة ٨٥٢هـ.

انظر ترجمته في: الضوء اللامع ٢/ ٣٦، شذرات الذهب ٧/ ٢٧٠، البدر الطالع ١/ ٨٧.

(٣) فتح الباري ٦/ ٣١٦.

(٤) سورة التوبة، من الآية (٦).

(٥) انظر هذه الأصناف الثلاثة في بدائع الصنائع ٦/ ٧١ وما بعدها، المذهب ٢/ ٢٥٩، =

الحاضر: الإذن الرسمي بدخول الدولة، كالفيزا، أو كرت الزيارة، أو ختم الدخول، ونحو ذلك.

وكل هؤلاء الثلاثة يطلق عليهم أهل عهد؛ فأما أهل الذمة فلا أنهم عاهدوا على بذل الجزية وعلى جريان أحكام الإسلام عليهم، وأما أهل الهدنة فلا أن الصلح المؤقت عهد، وأما أهل الأمان فلا أن الأمان الذي أخذوه من المسلمين عهد أيضاً؛ ولذلك يطلق على المستأمن معاهد، قال الشوكاني^(١): (المعاهد هو الرجل من أهل دار الحرب يدخل إلى دار الإسلام بأمان، فيحرم على المسلمين قتله بلا خلاف بين أهل الإسلام حتى يرجع إلى مأمنه)^(٢).

وأكثر ما يطلق لفظ أهل العهد في الحديث على أهل الذمة، قال ابن

= المغني لابن قدامة ١٣/ ٧٥ و ١٥٤ و ٢٠٢، أحكام أهل الذمة ٢/ ٤٧٥.

(١) هو: محمد بن علي بن محمد الصنعاني اليماني، أبو عبد الله، محدث، مفسر، فقيه، أصولي، مؤرخ، ولد ونشأ في صنعاء، وتربى في حجر أبيه على العفاف والطهارة، فحفظ القرآن وكثيراً من المتون في العلوم المختلفة، حتى صار إماماً جليلاً، ولي القضاء في صنعاء، من مصنفاته: فتح القدير في التفسير، إرشاد الفحول في الأصول، نيل الأوطار، السيل الجرار، وغيرها، توفي سنة ١٢٥٠ هـ.

انظر ترجمته في: الفتح المبين ٣/ ١٤٤، هدية العارفين ٢/ ٣٦٥، الأعلام ٢٩٨.

(٢) نيل الأوطار ٨/ ١٣٦.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
الأيثر^(١) في المعاهد: (يجوز أن يكون بكسر الهاء وفتحها على الفاعل
والمفعول، وهو في الحديث بالفتح أشهر وأكثر. والمعاهد: من كان
بينك وبينه عهد، وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة، وقد يطلق
على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب مدة ما)^(٢).

وأما أهل الحرب: فهم الذين ليس بيننا وبينهم ذمة ولا هدنة ولا
أمان، وسموا أهل حرب؛ لأن الحرب متوقعة بيننا وبينهم في أي وقت،
فنحن لا نأمنهم أن يحاربونا، وهم كذلك، وهذا هو الأصل في الكفار^(٣)،
فالأصل فيهم أنهم حريون إلا إذا أسلموا فيكون لهم ما لنا وعليهم ما
علينا، فإن أبوا الدخول في الإسلام ورضوا ببذل الجزية كانوا من أهل
الذمة، وإن أبوا بذلها وعقد الإمام معهم صلحاً صاروا معاهدين، وإن
طلب أحدهم الأمان من الإمام أو أحد المسلمين صار مستأمنًا، فإن أبوا

(١) هو: المبارك بن محمد الشيباني الجزري ثم الموصلبي الشافعي، مجد الدين، أبو
السعادات، المعروف بـ(ابن الأثير)، ولد سنة ٥٤٤هـ، في جزيرة ابن عمر، وبها نشأ، ثم
تحول للموصل، قرأ الحديث وبرع فيه، من مؤلفاته: جامع الأصول، والنهاية في غريب
الحديث والأثر، وشرح مسند الشافعي وغيرها، توفي عام ٦٠٦هـ بالموصل.
انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤٨٨/٢١، طبقات الشافعية لابن قاضي شعبة ٦٠/٢،
شذرات الذهب ٢٢/٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ص ٦٥٢.

(٣) أحكام أهل الذمة ٤٧٥/٢.

الإسلام وبذل الجزية ولم نصالحهم ولم نؤمنهم بقوا على الأصل،
وهو كونهم حربيين.

المبحث الأول: السلام مع أعداء الداخل

تقدم أن المراد بأعداء الداخل هم المسلمون الخارجون على ولي أمرهم بغير حق، وقد جاءت الشريعة الإسلامية بالسلام مع هؤلاء بكل السبل الممكنة؛ لأن الإسلام يسعى إلى نشر السلام بين المسلمين، سلاماً يأمنون به على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، ويقيمون في ظله مشاعر دينهم، وتطبيق أحكامه، ونشر العدل، وقمع الظلم وأهله، وإقامة الحدود، ورفع راية الجهاد، ونشر الإسلام.

فمع كون البغاة على الإمام معتدين وظالمين ومخالفين لما أمر الله تعالى به من طاعة ولي الأمر إلا أن النصوص الشرعية جاءت بأمر المسلمين بالسلام معهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَعِّلُوا الْتَىٰ بَغَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١)، ويدل على ذلك الأحكام المتعلقة بقتالهم، سواء كانت الأحكام التي أمر بها الله تعالى قبل القتال، أم في أثناءه، أم بعده.

فمن الأحكام التي تكون قبل قتالهم:

(١) سورة الحجرات، الآية (٩).

١- أنه لا يجوز للإمام قتالهم حتى يرأسلهم، ويبعث إليهم من يسألهم ما ينقمون منه، فإن ادعوا شبهة كشفها لهم، وإن ادعوا مظلمة أزالها؛ لأن الله تعالى بدأ في الآية السابقة بالأمر بالإصلاح قبل القتال فقال: ﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، وسؤالهم عما ينقمون منه، وكشف ما ادعوه من شبهات، وإزالة ما ادعوه من مظالم، هو من الإصلاح، والسعي إلى السلام معهم، وقد أرسل علي عليه السلام ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج ليسألهم ويكشف لهم الصواب، فرجع منهم أربعة آلاف^(١).

٢- أنهم إذا أبوا الرجوع بعد المراسلة، وعظهم، وخوفهم القتال؛ لأن المقصود هو دفع شرهم بأخف ما يكون، وليس قتلهم، كدفع الصائل، فإذا أمكن تحصيل ذلك المقصود بدون القتال، لم يجز قتالهم؛ لما في القتال من الضرر بالفريقين.

٣- أنهم إذا طلبوا من الإمام أن يمهلهم فإنه يبحث أمرهم مع أهل مشورته، فإن بان له أن قصدهم الرجوع إلى الطاعة، ومعرفة الحق، أمهلهم، قال ابن المنذر^(٢): (أجمعوا أن أهل البغي إذا سألوا الإمام النظر في

(١) رواه أحمد، ١/ ١٨٦، (٦٥٦)، والحاكم، كتاب قتال أهل البغي، ٢/ ١٦٥، (٢٦٥٧)، والبيهقي، كتاب قتال أهل البغي، باب: لا يبدأ الخوارج بالقتال ...، ٨/ ٣٠٩، (١٦٧٤٠)، وصححه الألباني في الإرواء ٨/ ١١١.

(٢) هو: محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، أبو بكر، ولد سنة ٢٤٢ هـ أحد =

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

أمورهم، ورجا رجوعهم عمّا هم عليه إلى طريق أهل العدل، فعليه أن يفعل^(١)؛ لأن المقصود رجوعهم إلى الحق، وإن ظن أنها مكيدة، إما ليجتمعوا على قتاله، أو أن لهم مدداً ينتظرونه ليتقوا به، أو نحو ذلك لم يمهلهم.

٤- أنهم إذا فاؤوا بعد المراسلة أو الوعظ أو الإمهال فهذا المطلوب، فإن لم يفيئوا كف عنهم ما لم يبدؤوا بالقتال، فإن قاتلوا قاتلهم؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٢)، فدلّت الآية على أن مجرد اعتقاد أهل البغي لا يوجب قتالهم ما لم يقاتلوا ويبغوا؛ لأنه سبحانه وتعالى إنما أمر بقتالهم إذا بغوا بالقتال^(٣)، ولهذا أمر عليّ^{عليه السلام} أصحابه يوم الجمل ألا يبدؤوهم بالقتال^(٤).

= المجتهدين الحفاظ، كان شيخ الحرم بمكة، من أهم مصنفاته: المبسوط، والأوسط، والإجماع، واختلاف العلماء، وغيرها، توفي سنة ٣١٩هـ. انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ٣/٤، الأعلام ٥/٢٩٤.

(١) الإجماع لابن المنذر ص ١٧٩.

(٢) سورة الحجرات، من الآية (٩).

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٥/٢٨٢.

(٤) رواه البيهقي، كتاب قتال أهل البغي، باب: لا يبدأ الخوارج بالقتال...، ٨/٣١٣، (١٦٧٤٣)، وضعفه الألباني في الإرواء ٨/١١٠. ودلالة الآية على ذلك كافية، ولكن =

ومن الأحكام التي تكون أثناء قتالهم:

١- أنه إذا حضر معهم من لا يقاتل لم يجز قتله؛ لأن علياً عليه السلام نهى أصحابه عن قتل محمد السجاد^(١)؛ لأنه حضر معركة الجمل طاعة لأبيه، لا ليقاتل^(٢).

٢- أنه لا يُقاتلون بما يعم إتلافه، كالمنجنيق^(٣)، والنار، وكالقنابل في الوقت الحاضر؛ لئلا يقتل من لا يقاتل، إلا للضرورة، مثل أن يترس بهم البغاة، ولا يمكن الوصول إليهم إلا برميهم بما يعم إتلافه، أو يرمون المسلمين بما يعم إتلافه فيرمونهم به؛ معاملةً بالمثل.

وبهذا يتبين لنا أن الإسلام يتشوف إلى السلام معهم؛ لأن المقصود

= ذكرت هذا الأثر للاستئناس، ولكثرة من استشهد به من العلماء.

(١) هو: محمد بن طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي رضي الله عنهما، أبو القاسم، الملقب بـ(السجاد) لعبادته وتألّفه، ولد في حياة النبي ﷺ، أبوه أحد العشرة المبشرين بالجنة، لم يزل به أبوه حتى سار معه، وأمه حمّة بنت جحش رضي الله عنها، قُتل شاباً يوم الجمل سنة ٣٦ هـ. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٦٨، الإصابة ٣/ ٣٧٦، شذرات الذهب ١/ ٤٣.

(٢) رواه الحاكم، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب محمد بن طلحة بن عبيد الله السجاد رضي الله عنهما، ٣/ ٤٢٣، (٥٦٠٩)، بسند وهّاه الشيخ/ صالح آل الشيخ في التكميل ص ١٨٤، والقصة ذكرها جمع من الحفاظ، فقد ذكرها ابن عبد البر في الاستيعاب ٣/ ١٣٧٢، وابن الأثير في أسد الغابة ٥/ ٩٨، والحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٥٥٤.

(٣) المنجنيق: آلة ترمى بها الحجارة. انظر: القاموس المحيط، ص ١١٢٦، لسان العرب، ١٠/ ٣٣٨.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

هو رجوعهم إلى الحق وإلى طاعة ولي الأمر، لأنه يحصل بذلك مصالح عظيمة من إخماد الفتنة، وحقن الدماء، وحفظ للأعراض والأموال والممتلكات، واجتماع للكلمة، ووحدة للصف، واستتباب للأمن، وردع للظلم، ونشر للعدل، وإظهار لشعائر الدين، وإقامة للحدود، وقوة لشوكة المسلمين، وغيرها من المصالح الكثيرة.

وأما ما بعد قتالهم فلا يخلو الوضع من حالين: إما أن تغلب عليهم أو يتغلبوا علينا.

الحال الأولي: أن تغلب عليهم، وحينئذ نردهم إلى الحق، ونجعلهم يدخلون فيما دخل فيه المسلمون، ويترتب من الأحكام حينئذ ما يلي:

١- أنه لا يجوز قتل مدبرهم ولا الإجهاز على جريحهم، فيما إذا تركوا القتال، إما بالرجوع إلى الطاعة، أو بإلقاء السلاح، أو بالهزيمة، أو بالعجز لجراح أو مرض أو أسر؛ لما ثبت عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال: (شهدت صفين فكانوا لا يجيزون على جريح، ولا يطلبون موليا، ولا يسلبون قتيلا)^(١)؛ ولأن المقصود دفعهم وكفهم وقد حصل، فلم يجز قتلهم، بل إنه لا يجوز للإمام أن يستعين بمن يرى جواز

(١) رواه الحاكم، كتاب أهل البغي، ١٦٧/٢، (٢٦٦٠)، والبيهقي، كتاب قتال أهل البغي، باب أهل البغي إذا فاؤوا لم يتبع مدبرهم...، ٣١٥/٨، (١٦٧٥٢)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الألباني: (وهو كما قال). انظر: الإرواء ٨/١٨٢.

قتل مدبرهم أو أسيرهم أو الإجهاز على جريحهم؛ لأن القصد كفهم وردهم إلى الطاعة لا قتلهم، وهؤلاء يقصدون قتلهم، ما لم تدع الحاجة إلى الاستعانة بهم فيستعين بهم قدر الحاجة.

٢- أنه لا يغنم لهم مال، ولا تسبى لهم ذرية، قال شمس الدين ابن قدامة^(١): (ولا نعلم في تحريمه بين أهل العلم خلافاً؛ لما ذكرنا من حديث أبي أمامة وابن مسعود^(٢))، ولأنهم معصومون، وإنما أبيع من دمائهم وأموالهم ما حصل من ضرورة دفعهم وقتالهم، وما عداه يبقى

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الصالح الحنبلي، أبو الفرج، تفقه على عمه موفق الدين ابن قدامة، وعنى بالحديث، وأخذ الأصول عن السيف الأمدي، ودرّس، وأفتى، وانتهت إليه رئاسة المذهب في عصره، كان متواضعاً، وقوراً، رقيق القلب، سريع الدمعة، كريم النفس، كثير الذكر، من أهم مصنفاته: الشرح الكبير على المقنع، توفي سنة ٦٨٢ هـ بدمشق.

انظر ترجمته في الذيل على طبقات الحنابلة ٤/ ١٧٢، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٩٢، البداية والنهاية ١٣/ ٣٢٠.

(٢) يريد بحديث أبي أمامة الذي سبق ذكره، وأما حديث ابن مسعود فنصه أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن أم عبد، ما حكم من بغى على أمتي؟» فقال ابن مسعود: الله ورسوله أعلم. فقال ﷺ: «لا يقتل مدبرهم، ولا يجاز على جريحهم، ولا يقتل أسيرهم، ولا يقسم فيهم». رواه الحاكم والبيهقي، وسكت عنه الحاكم، وضعفه البيهقي والذهبي وابن حجر والألباني. انظر: المستدرک ٢/ ١٦٨، السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٣١٦، بلوغ المرام ٤/ ٥٢٤، إرواء الغليل ٨/ ١٨٢.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

على أصل التحريم^(١). فيجب رد أموالهم إليهم بعد الحرب. وقد وردت آثار عن علي عليه السلام تدل على ذلك، ولكن في أساندها نظر^(٢).

٣- أنه لا يجوز قتل أسارى أهل البغي وإن قتلوا أسارى أهل العدل؛ لأنهم لا يقتلون بجنائية غيرهم.

٤- أنه من أسر من البغاة يخلّى سبيله إن دخل في الطاعة، وإن أبى ذلك وكان رجلاً جلدًا من أهل القتال حُبس ما دامت الحرب قائمة، فإذا انقضت الحرب خُلي سبيله، وشرط عليه ألا يعود إلى القتال^(٣).

الحال الثانية: أن يتغلبوا علينا، وحينئذٍ سوف يزيحون إمامنا عن السلطة، ويولون مكانه رجلاً منهم، من غير بيعة المسلمين ولا اختيار منهم، ويترتب بعد ذلك من الأحكام أنه يصبح خليفة للمسلمين، وتثبت له الإمامة بالتغلب، ويجب علينا مبايعته، ولا يجوز لنا الخروج عليه، قال الإمام أحمد^(٤): (من خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان

(١) الشرح الكبير لشمس الدين ابن قدامة ٧٧/٢٧.

(٢) رواها البيهقي، كتاب قتال أهل البغي، باب أهل البغي إذا فاؤوا لم يتبع مدبرهم...، ٣١٦/٨، (١٦٧٥٧)، وضعفها الألباني في الإرواء ١١٥/٨.

(٣) انظر هذه الأحكام المتعلقة بقتال أهل البغي في الهداية شرح البداية ٢/١٧٠، البحر الرائق ٥/١٥١، بدائع الصنائع ٧/١٤٠، الكافي لابن عبد البر ١/٢٢٢، المذهب ٢/٢١٨، الشرح الكبير لابن قدامة ٦٥/٢٧ وما بعدها، الفروع لابن مفلح ٦/١٤٨.

(٤) هو: أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله، ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ، وفيها نشأ، =

الناس اجتمعوا عليه، وأقروا له بالخلافة بأي وجه كان بالرضا أو بالغلبة فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية^(١).

ونحن إذا تأملنا أحكام الإسلام المتعلقة في هذه القضية نجدها مبنية على تحصيل السلام ونبد العنف، سواء في حال وجوب الخروج على الإمام أم في حال عدم جواز ذلك، وسواء في حال تغلب الإمام على البغاة أم في حال تغلبهم عليه، ويتبين هذا فيما يلي:

١ - أن وجوب الخروج على الإمام الذي رأينا منه كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان مع قدرتنا على إزالته هو السلام؛ لأن ببقائه ينشر الكفر والفساد والظلم بين عباد الله، ويغير معالم الدين، ويميت شعائرها، وينصر الكفر وأهله، وهذا مناقض للحكمة التي من أجلها خلق الله

= هو الإمام حقاً، وشيخ الإسلام صدقاً، إمام أهل السنة، أحد أئمة المذاهب الأربعة، رحل في طلب الحديث إلى بلاد كثيرة حتى صار إماماً في الفقه والحديث، عُدب في فتنة القول بخلق القرآن فصبر وحفظ الله به الإسلام، من مصنفاته: المسند، وكتاب الزهد، والناسخ والمنسوخ، توفي ببغداد سنة ٢٤١ هـ.

انظر ترجمته في: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ١، البداية والنهاية ١٠ / ٣٤٠، سير أعلام النبلاء ١١ / ١٧٧.

(١) أصول السنة للإمام أحمد ص ٣. وانظر: فتح الباري ١٣ / ٩، نيل الأوطار ٩ / ٤٠.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
تعالى الثقلين، وأرسل من أجلها الرسل، وشرع لها الجهاد، وبإزالته
يعم الإسلام والصالح والعدل بين عباد الله، وتحيا الملة، وتظهر شعائر
الدين.

٢- أن عدم جواز الخروج على الإمام إلا بالشروط المذكورة،
يجعل الخروج عليه في نطاق ضيق؛ لأنه كلما زادت شروط فعل الشيء
ضاق نطاق العمل به، وهذا يدل على أنه يجب علينا أن نصبر على ولي
الأمر - في حال عدم توافر تلك الشروط - كما يجب علينا أن نتعامل
معه بالسلم ما وجدنا للسلم موضعاً؛ لأن الخروج عليه مع عدم توافر
الشروط - لاسيما اشتراط القدرة - يترتب عليه شر كثير، وفتن عظيمة،
وقتل للمسلمين، وتشريد لهم، وإفساد لأموالهم، ونشر للخوف بينهم،
وربما هتك لأعراضهم، وغير ذلك من المفاسد، كما حصل لأهل
المدينة في وقعة الحرة، التي كان سببها أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن
معاوية^(١)؛ لأنهم اتهموه بشرب الخمر وترك بعض الصلوات، وولوا

(١) هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي، أبو خالد، تسلم الملك عند موت أبيه
سنة ٦٠هـ، وفي الأمة من هو أولى منه بالخلافة كابن عمر، بل هو أولى منه ومن أبيه وجده،
ولم يمهله الله تعالى على فعله بأهل المدينة لما خلعوه، فكانت دولته أقل من أربع سنوات،
وله على هناته حسنة، وهي إمرته للجيش الذي غزا القسطنطينية، وفي الجيش أبو أيوب
الأنصاري رضي الله عنه، وكان شجاعاً حازماً فصيحاً، وله شعر جيد، افتتح دولته بمقتل الحسين =

عليهم ثلاثة رجال: أحدهم على الأنصار والثاني على قريش والثالث على بقية المهاجرين، فأرسل إليهم يزيد جيشاً فاستباح المدينة ثلاثة أيام بأمره - لا جزاءه الله خيراً -، وقتلوا خلقاً من أشرافها وقرائها، وانتهبوا أموالاً كثيرة منها، ووقعوا على النساء حتى قيل: إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج، ووقع شرٌّ وفسادٌ عريض، مع أن أهل المدينة أخطؤوا في خروجهم على يزيد؛ لأنه لم يصدر منه كفرٌ بواحٌ؛ ولهذا لم يوافقهم ابن عمر رضي الله عنهما على الخروج، بل نهى أهله عنه^(١).

فالواجب الصبر على ولي الأمر ولو كان ظالماً، قال القرطبي^(٢):
(والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشن الغارات على

= ^{رحمته} واختتمها بواقعة الحرة فمقتته الناس، وهو ممن لا نسبه ولا نجه، توفي سنة ٦٤ هـ. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥، الكامل في التاريخ ٤/ ١٢٦، شذرات الذهب ١/ ٧١.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٢) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي المالكي، أبو عبد الله، وأحد كبار المفسرين، لم يكن شديد التعصب لمذهبه، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، من مصنفاته: الجامع لأحكام القرآن، وله كتب أخرى في الزهد، توفي سنة ٦٧١ هـ. انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٥/ ٣٣٥، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٦٩.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

المسلمين، والفساد في الأرض^(١). وقال النووي: (وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة أو ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل بالفسق، وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقاءه)^(٢)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ؛ لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فلا يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما، ولعله لا يكاد تعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته)^(٣).

وقال ابن كثير^(٤): (والإمام إذا فسق لا يُعزل بمجرد فسقه على أصح

(١) تفسير القرطبي ١٠٩/٢.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢ / ٢٢٩.

(٣) منهاج السنة ٣ / ٣٩١.

(٤) هو: إسماعيل بن كثير بن ضوء الدمشقي، أبو الفداء، الحافظ المؤرخ الفقيه المحدث المفسر، ولد سنة ٦٧١ هـ في بصرى الشام، وانتقل إلى دمشق، ورحل في طلب العلم، =

قولي العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه؛ لما في ذلك من إثارة الفتنة، ووقوع الهرج، وسفك الدماء الحرام، ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن، وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا^(١)، وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز تعليقاً على حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه المتقدم: (فهذا يدل على أنه لا يجوز لهم منازعة ولاية الأمور، ولا الخروج عليهم إلا أن يروا كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان؛ وما ذاك إلا لأن الخروج على ولاية الأمور يسبب فساداً كبيراً وشرّاً عظيماً، فيختل به الأمن، وتضيع الحقوق، ولا يتيسر ردع الظالم، ولا نصر المظلوم، وتختل السبل ولا تأمن، فيترتب على الخروج على ولاية الأمور فساد عظيم وشر كثير، إلا إذا رأى المسلمون كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان، فلا بأس أن يخرجوا على هذا السلطان لإزالته إذا كان عندهم قدرة، أما إذا لم يكن عندهم قدرة فلا يخرجوا، أو كان الخروج يسبب شرّاً أكثر فليس لهم الخروج؛ رعاية للمصالح العامة. والقاعدة الشرعية المجمعة عليها:

= من مصنفاته: تفسير القرآن العظيم، البداية والنهاية في التاريخ، وغيرها، من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، توفي بدمشق سنة ٧٧٤هـ. انظر ترجمته في: الأعلام ١/ ٣٢٠، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣/ ٨٥.

(١) البداية والنهاية ٨/ ٢٢٣ - ٢٢٤

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
(أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشر منه، بل يجب درء الشر بما يزيله أو يخففه). أما درء الشر بشر أكثر فلا يجوز بإجماع المسلمين، فإذا كانت هذه الطائفة التي تريد إزالة هذا السلطان الذي فعل كفرًا بواحًا عندها قدرة تزيله بها، وتضع إمامًا صالحًا طيبًا من دون أن يترتب على هذا فساد كبير على المسلمين، وشر أعظم من شر هذا السلطان فلا بأس، أما إذا كان الخروج يترتب عليه فساد كبير، واختلال الأمن، وظلم الناس، واغتيال من لا يستحق الاغتيال إلى غير هذا من الفساد العظيم، فهذا لا يجوز، بل يجب الصبر، والسمع والطاعة في المعروف، ومناصحة ولاة الأمور، والدعوة لهم بالخير، والاجتهاد في تخفيف الشر وتقليله، وتكثير الخير^(١).

٣- أن الأحكام التي أمر بها الإسلام قبل قتال أهل البغي وفي أثناءه وبعده، كمراسلتهم، وسؤالهم ما ينقمون منه، وكشف الشبه، وإزالة المظالم التي يدعونها، ووعظهم، وتخويفهم وإمهالهم، وعدم البدء بالقتال، وألا يقتل من حضر معهم وهو لا يقاتل، وعدم قتل مدبرهم، والإجهاز على جريحهم، وألا تغنم أموالهم، ولا تسبي ذراريهم، وغيرها من الأحكام التي ذكرناها، كلها دليلٌ على أن الإسلام حريص على

(١) مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز ٨ / ٢٠٣ - ٢٠٤.

السلام معهم ما أمكن؛ لأنه تدرّج في معاقبتهم من الأخف إلى الأشد. بل وردت نصوص شرعية، صريحة تعظم السلام حال الفتنة، وتحث ولي أمر المسلمين عليه، وعلى تقديمه على ما سواه ما وجد إلى ذلك سبيلاً، منها: قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «إنه سيكون اختلافٌ - أو: أمرٌ -، فإن استطعت أن تكون السلم فافعل»^(١).

٤- أن وجوب مبايعتنا للرجل الباغي الذي ثبتت إمامته بالتغلب دليل على تطلع الإسلام للسلام؛ لأنه أوجب ذلك حقناً للدماء، وحفظاً للأعراض والأموال والممتلكات، وإخماداً للفتنة؛ ولهذا لما بايع الناس عبد الملك بن مروان^(٢) كتب إليه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (إلى عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله

(١) رواه الإمام أحمد، ١/ ٥٩، (٥٩٦)، والبخاري في التاريخ الكبير، ١/ ٥٤٤، (٢١٤١)، وصححه أحمد شاكر. انظر: المسند بتصحيح أحمد شاكر ٥٨/ ٢.

(٢) هو: عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو الوليد، تملك بعد أبيه الشام ومصر، ثم حارب ابن الزبير الخليفة، وقتل أخاه مصعباً، واستولى على العراق، وجهز الحجاج لحرب ابن الزبير في مكة، وقتله سنة ٢٧هـ، واستوسقت الممالك له، كان قبل الخلافة عابداً ناسكاً بالمدينة، قال ابن عمر: (إن لمروان ابناً فقيهاً فسلوه)، قال الذهبي: (كان من رجال الدهر ودهاة الرجال وكان الحجاج من ذنوبه)، توفي سنة ٦٨هـ. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٤٢، العبر ١/ ١٠٢، شذرات الذهب ١/ ٧٩.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
فيما استطعت، وإن بني قد أقرؤا بذلك^(١). وأوجب الإسلام مبايعته
أيضاً لأنه لا بد من وجود حاكم، فلا تصح الحياة الاجتماعية بدون
حاكم؛ لأن به تحصل وحدة الصف، واستتباب الأمن، وردع الظلم،
ونشر العدل، وظهور شعائر الدين، وإقامة الحدود، وغير ذلك من
المصالح العظيمة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يجب أن يُعرف أن
ولاية أمور الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا
إلا بها... ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل
وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتم
إلا بالقوة والإمارة؛ ولهذا روي أن السلطان ظل الله في الأرض، ويقال:
ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان، والتجربة

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب: كيف يبائع الإمام الناس، ٦/ ٢٦٣٤، (٦٧٧٧).

تبيين ذلك... فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها^(١).

(١) مجموع الفتاوى ٢٨ / ٣٩٠-٣٩١.

المبحث الثاني: السلام مع أعداء الخارج

تقدم أن المراد بأعداء الخارج هم الكفار الذين لا يدينون بالإسلام، وهؤلاء قد أمرنا الله سبحانه وتعالى بجهادهم، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾^(١)، وقال تعالى أيضاً: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَ الْأَمْرُ الْحَرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾^(٢)، وأمرنا الله تعالى بجهادهم لأنهم كفروا بالله ورسوله، وصدوا عن سبيله، وأفسدوا في الأرض، واستعبدوا العباد، وشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله تعالى؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى في الآية السابقة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فعلق الحكم بالمشركين، وتعليق الحكم بالوصف المشتق يدل على أنه هو العلة، فلما علقه بالمشركين علم أن الشرك هو العلة، وأنه هو المقتضي لقتالهم، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٣)، وهذه الصفات التي ذكرها سبحانه من كونهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله

(١) سورة التوبة، من الآية (٣٦).

(٢) سورة التوبة، من الآية (٥).

(٣) سورة التوبة، الآية (٢٩).

ولا يدينون دين الحق هي بمنزلة علة الحكم، أي: قاتلوهم لأنهم يتصفون بذلك، فأمرنا الله تعالى بجهادهم؛ حتى يدينوا بدين الحق، ويحكموا شرع الله تعالى، ويعم الإيمان والعدل والخير بين الخلق؛ ولهذا لما سئل الرسول ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١)، فنحن المسلمين لا نقاتل الكفار لأجل مال أو دنيا أو حب للتسلط أو غير ذلك، وإنما لنشر الإسلام الذي هو السلام الحقيقي؛ ولهذا أمرنا النبي ﷺ أن ندعوهم إلى الدخول في الإسلام قبل أن نبداهم بالقتال، فإن أسلموا فقد أفلحوا، وصار لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، وإن أبوا عرضنا عليهم بذل الجزية، فإن بذلوا قبلناها منهم وصاروا أهل ذمة، وإن أبوا قاتلناهم، كما في الحديث الذي رواه بريدة رضي الله عنه حيث قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من

(١) رواه البخاري، أبواب الخمس، باب: من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره؟، ٣/١١٣٧،

(٢٩٥٨)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل

الله، ١٣/٧٣، (١٩٠٤).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال -أو خلال-، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم -إلى أن قال- فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم^(١)، وهذه الخيارات الثلاث كلها سلام، إما باعتبار ذاتها أو باعتبار ما تؤول إليه.

فأما دعوتهم للدخول في الإسلام فلكونه السلام الحقيقي في الدنيا والآخرة؛ ولهذا بدأ به، لأنه أشرفها وأما دعوتهم إلى دفع الجزية -في حال رفضهم الإسلام- فهي دعوة إلى السلام أيضاً؛ لأننا نبسط حكم الله تعالى على الأرض، ونطبقه بين عباده، ولأنهم يسلمون من كونهم يُقتلون على الكفر أو يُشردون من ديارهم، فبدفعهم الجزية يبقون في بلادهم، وتحت حمايتنا، ويصيرون أهل الذمة، ويقرون على كفرهم، ويعيشون في حرية من دينهم تحت أحكام الإسلام العادلة.

قال الإمام الشافعي: (ولو حاصرنا أهل مدينة من أهل الكتاب فعرضوا علينا أن يعطونا الجزية لم يكن لنا قتالهم إذا أعطوناها، وأن يجري عليهم حكمنا)^(٢). وأما دعوتهم إلى القتال -حال رفضهم الخيارين السابقين-

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ...، ١٢/ ٥٥، (١٧٣١).

(٢) الأم ٤/ ٢٧٩.

فهي دعوة إلى السلام أيضاً، ولكنه سلامٌ من نوع آخر، فهو سلام من حيث المآل لا من حيث الذات؛ لأنه من حيث ذاته قتل وتشريد وسبي للذرية، ومن حيث مآله أنه يؤول إلى تطبيق شرع الله تعالى على أرضه، وتمكين عباده الصالحين فيها، الذين يُخرجون العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، والذين يملؤون الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، هذا من حيث تحقيق مقاصد الشرع. وهو سلامٌ أيضاً للكفار الذين نجوا من القتل ووقعوا في الأسر، من جهة كون أسرهم عند المسلمين قد يكون سبباً لدخولهم في الإسلام، وذلك عندما يطلعون على الإسلام عن قرب، وهذا من العجب العجائب أن يأتي أسيراً بالسلاسل رغم أنفه ثم يسلم ويدخل الجنة؛ ولهذا تعجب ربنا سبحانه وتعالى من حال هؤلاء، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»^(١)، يعني: الأسارى الذين يقدم بهم إلى بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة^(٢).

وأما من قُتل منهم فقد يكون قتله سلاماً لمن بعده من الأحياء الذين

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب الأسارى في السلاسل، ١٠٩٦/٣، (٢٨٤٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣١٢/١.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

سلموا من شره وفتنته؛ لأن من الكفار من يكون سبباً لإضلال غيره مع كونه ضالاً في نفسه، كحال من دعا عليهم نوح عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٦١) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغِرًا كَفَّارًا ﴿١﴾، قال شيخ الإسلام: (وذلك أن الله تعالى أباح من قتل النفوس، ما يحتاج إليه في صلاح الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (٢)، أي: أن القتل - وإن كان فيه شر وفساد - ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر منه) (٣). فقتال الكفار بمنزلة العلاج المؤلم للمريض، وقد يقطع بعض البدن استصلاحاً لبقية.

وبهذا يتبين لنا أن الإسلام سعى إلى تحقيق السلام مع أعدائه الكفار بكل الوسائل، واتبع في ذلك الأفضل فالأفضل. وأنه أمر بقتالهم - في حال رفضهم خيار الإسلام وبذل الجزية - لبسط حكم الله على أرضه وبين عباده، ولإقامة الحجة على من كفر، لا لنجبرهم على الدخول في الإسلام قهراً - كما يزعم ذلك من لا علم عنده -؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٤)، ومن أوضح الأدلة على أن

(١) سورة نوح، الآيتان (٢٦ و ٢٧).

(٢) سورة البقرة، من الآية (٢١٧).

(٣) السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٣٣.

(٤) سورة البقرة، من الآية (٢٥٦).

الجهاد لم يشرع لدخول الناس في الإسلام قهراً أننا نقبل من الكفار- إذا أبوا الإسلام- أن يدفعوا الجزية ونكف عنهم ونحميهم، ولو كنا لا نرضى إلا بالإسلام ما قبلنا منهم ذلك.

إيراد: إن قيل: كيف يأتي المسلمون إلى قوم يعيشون في بلادهم بسلام وأمان، ويدينون بما يدينون به، ثم يجبرهم المسلمون- في حال رفضهم الإسلام- على أحد أمرين: إما أن يبذلوا الجزية لهم، ويكون حكم بلادهم وخيراتها لهم، وأن يكونوا تحت حمايتهم، وإما القتال، ثم تقولون بعد ذلك: إن دين الإسلام هو دين السلام والعدل؟! أليس هذا اعتداء على الحريات والحقوق والأموال؟! لماذا لا يتركون الناس وشأنهم في أمر تدينهم؟ وهل كان للمسلمين وصاية على الناس حتى يسلكوا معهم هذا المسلك؟.

فالجواب عن ذلك: أن الأرض وما فيها من خيرات الله تعالى، يعطيها من يشاء، ويمنعها من يشاء، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الْأَرْضَ اللَّهُ يُوْرِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(١)، وقد حكم الله تعالى بأن الأرض لعباده الصالحين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ

(١) سورة الأعراف، من الآية (١٢٨).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١١﴾، قال الشنقيطي -رحمه الله-: (أظهر الأقوال عندي في هذه الآية الكريمة: أن الزبور الذي هو الكتاب يراد به جنس الكتاب فيشمل الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل وزبور داود وغير ذلك، وأن المراد بالذكر أم الكتاب، وعليه فالمعنى: ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب) ^(٢)، واختلف العلماء في المراد بالأرض في هذه الآية على قولين، فقليل: أرض الجنة، كقول أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ ^(٣)، وقيل: أرض العدو، يورثها الله المؤمنين في الدنيا، ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا﴾ ^(٤)، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٥) وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿٥٠﴾، والآية إذا كان فيها للعلماء قولان، وكلاهما يشهد له دليل، ولا تضاد بينهما، فكلاهما حقٌّ يدخل في عموم الآية، ويكون

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٠٥).

(٢) أضواء البيان ٤/ ٢٤٩.

(٣) سورة الزمر، من الآية (٧٤).

(٤) سورة الأحزاب، الآية (٢٧).

(٥) سورة إبراهيم، من الآيتين (١٣ و ١٤).

اختلاف العلماء فيها حينئذٍ من باب اختلاف التنوع لا التضاد، ومن ذلك اختلافهم في تفسير الأرض هنا ^(١).

وعلى هذا: فلا حق للكفار في الأرض، ولا في خيراتها، بل هي حق لعباد الله الصالحين، وإنما جعلها الله تعالى لهم؛ لأنهم أولياؤه يحكمون بشرعه؛ ويتعبدونه عليها، ويقيمون عليها دينه، ويصلحون فيها، وأما الكفار فهم أعداؤه، يحكمون فيها بغير شرعه، ويعبدون غيره، ويتسلطون على عبادته، ويفسدون فيها، فإذا غزا المسلمون الكفار فإنهم يريدون استرداد حقهم منهم، ويدل لهذا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لليهود: «أسلموا تسلموا، واعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله» ^(٢). قال النووي: (قوله ﷺ: «الأرض لله ورسوله» معناه: ملكها والحكم فيها) ^(٣). فلا يكون غزونا لهم اعتداء عليهم، بل كوننا نقرهم على دينهم ولا نكرهم على الإسلام، ونجعلهم تحت حمايتنا ونأخذ مقابل ذلك جزية، هو من باب السلام معهم بلا شك.

(١) انظر: أضواء البيان ٢٤٩/٤ - ٢٥٠، تفسير السعدي ١/٥٣٢.

(٢) رواه البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب، ٣/١١٥٥،

(٢٩٩٦) ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إجماع اليهود من الحجاز، ١٢/١٢٩، (١٧٦٥).

(٣) شرح مسلم للنووي ١٢/١٢٩.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
وقد أجاب بعض المعاصرين عن الإيراد السابق بأنه إيرادٌ مبنيٌّ على
أن الجهاد في الإسلام هجوميٌّ، والأمر ليس كذلك، بل هو دفاعيٌّ
وقائيٌّ^(١).

واستدلوا بالآيات التي ظاهرها أننا نقاتل من قاتلنا، ونكف عمن
كف عنا، كقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا
تَعْتَدُوا﴾^(٢).

وهذا غير صحيح؛ لأن القول بأن الجهاد للدفاع فقط قول مخالف
لما قاله العلماء بأن الجهاد يجب ابتداءً كما يجب دفاعاً، وأنا لا نكف
عن الكفار إلا إذا أسلموا أو بذلوا الجزية، فإن أبوا قاتلناهم؛ لقوله ﷺ:
«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله
فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله»^(٣). قال شيخ
الإسلام ابن تيمية: (وأبلغ الجهاد الواجب للكفار والممتنعين عن بعض
الشرائع كمانعي الزكاة والخوارج ونحوهم يجب ابتداءً ودفعاً، فإذا

(١) انظر: آثار الحرب ص ٧٧٣.

(٢) سورة البقرة، الآية (١٩٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة...، ٣/١٠٧٧،

(٢٧٨٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...،

٢٩٠/١، (٢١).

كان ابتداءً، فهو فرض على الكفاية، إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقين، وكان الفضل لمن قام به، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١). فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجباً على المقصودين كلهم، وعلى غير المقصودين لإعانتهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ﴾^(٢)، وكما أمر النبي ﷺ بنصر المسلم)^(٣). وكذا نص غيره من العلماء^(٤). ولم ينقل عن أحد من العلماء أنه قال بأن الجهاد للدفاع فقط، بل هو قولٌ أثاره بعض الكتاب المعاصرين، إما جهلاً منهم، أو مجازاة للسياسة والإعلام، أو لغير ذلك من الأسباب. قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز في مقدمة إحدى محاضراته: (فلما كان الكثير من كتاب العصر قد التبس عليهم الأمر في أمر الجهاد، وخاض كثير منهم في ذلك بغير علم، وظنوا أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن الإسلام، وعن أهل الإسلام، ولم يشرع ليغزو المسلمون أعداءهم في بلادهم، ويطالبوهم بالإسلام ويدعوهم

(١) سورة النساء، من الآية (٩٥).

(٢) سورة الأنفال، من الآية (٧٢).

(٣) السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٤) انظر: روضة الطالبين ١٠/٢٠٣.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
إليه، فإن استجابوا وإلا قاتلوهم على ذلك، حتى تكون كلمة الله هي العليا،
ودينه هو الظاهر، لما كان هذا واقعاً من بعض الناس، وصدر فيه رسائل
وكتابات كثيرة، رأيت أن من المستحسن بل مما ينبغي أن تكون محاضرتي
في هذه الليلة، في هذا الشأن بعنوان: ليس الجهاد للدفاع فقط...^(١).
وأما استدلالهم بالآيات التي ظاهرها أننا نقاتل من قاتلنا ونكف عمن
كف عنا، وأنها تدل على أن الجهاد للدفاع فقط، فهو استدلال لم ينقل
عن أحد من العلماء، والمأثور عن العلماء أنهم اختلفوا في حمل هذه
الآيات على قولين:

القول الأول: أنها منسوخة بآية السيف - وهي قوله سبحانه وتعالى:
﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٢)، وما
جاء في معناها، كما نسخت الآيات التي تأمر بالصفح والإعراض عن
المشركين كقول الله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣). والواجب
على المسلمين أن يقاتلوا جميع الكفار حتى يدخلوا في دين الله، أو
يؤدوا الجزية.

(١) انظر: موقع الشيخ على الإنترنت على الرابط:

<http://www.binbaz.org.sa/mat/8573>

(٢) سورة التوبة، من الآية (٥).

(٣) سورة الأنعام، من الآية (١٠٦).

القول الثاني: أنها محكمة كسائر آيات الجهاد وآيات الإعراض عن المشركين، ولكن تنزل كل آية على حال، فإذا قوي المسلمون عملوا بآية السيف وما جاء في معناها، وقاتلوا جميع الكفار حتى يدخلوا في الإسلام، أو يؤدوا الجزية. وإذا ضعفوا عملوا بالآيات التي فيها الاشتغال بالدعوة والكف عن القتال، وإن قدروا على قتال بعض الكفار دون بعض، قاتلوا من قدروا على قتاله دون من لم يقدروا على قتاله، ويدؤون بالأهم فالأهم، فيبدؤون بمن قاتلهم وقصدتهم في بلادهم، ويكفون عمن كف عنهم، وممن قال بهذا القول الجصاص رحمه الله^(١).

قال الشيخ عبد العزيز بن باز عن آية السيف -ضمن المحاضرة التي سبق ذكرها-: (هذا هو المعروف في كلام أهل العلم من المفسرين وغير المفسرين، كلهم قالوا فيما علمنا واطلعنا عليه من كلامهم: إن هذه الآية وما جاء في معناها ناسخة لما مضى قبلها من الآيات التي فيها الأمر بالعفو والصفح وقتال من قاتل والكف عمن كف)، ثم ذكر أن بعض أهل العلم ذهب إلى أن آية السيف وما جاء في معناها ليست ناسخة وإنما تنزل آيات الجهاد حسب الأحوال كما ذكرت آنفاً، وذكر أن هذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢٥٥/٤.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

وبهذا تتضح المواءمة بين قول الله تعالى لنبه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)، وبين قوله ﷺ: «بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له»^(٢)، فهو ﷺ رحمة للعالمين، ومن رحمته أنه يقاتلهم إذا أبوا الإسلام ودفع الجزية ليأطروهم على الحق أطراً؛ لأن قتالهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن رحمتك بغيرك إذا رأيت على المنكر أن تأمره بالمعروف وتنهيه عن ذلك المنكر، وإذا لم يزل المنكر إلا بالسيف فيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية؛ فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)^(٣). ولم يتوقف سعي الإسلام لتحقيق السلام مع الكفار إلى هذا الحد، بل ظل يسعى إلى تحقيقه معهم إلى ما بعد ذلك، سواء مع الذين سالمونا من ذميين ومعاهدين ومستأمنين، أم مع الذين لم يسالمونا ورضوا بخيار القتال، ويدل لذلك الأحكام المتعلقة بهؤلاء وهؤلاء.

أما الذين سالمونا فقد أمر الإسلام بالتعامل معهم تعاملًا مبنياً على

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

(٢) رواه الإمام أحمد ٥٠ / ٢، (٥١١٤)، وصححه أحمد شاكر، وحكم بثبوته الشيخ عبدالعزيز بن باز. انظر: مسند الإمام أحمد بتصحيح أحمد شاكر ١٢١ / ٧، مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز ٤٠٦ / ١٣.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠٧ / ٢٨.

العدل والإحسان والرحمة والصدق ومكارم الأخلاق، ويدل على ذلك الأحكام المتعلقة بالعهد بيننا وبينهم التي أمرنا بها ديننا، ومنها:

١- الالتزام بالعهد ما دام الكافر ملتزماً به.

قال الله تعالى آمراً المسلمين بذلك: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(١)، ولذلك لما تبرأ الله تعالى من المشركين المعاهدين بقوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) أعطى الذين لهم عهدٌ مطلق غيرٌ مقدرٍ بمدةٍ، وكذلك الذين لهم عهدٌ مقدرٌ بأربعة أشهرٍ فأقل، أعطاهم عهداً مدته أربعة أشهر، فقال تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾^(٣)، فإذا انتهت الأربعة أشهر فلا عهد لهم، ثم استثنى الله تعالى الذين لهم عهدٌ مقدرٌ بأكثر من أربعة أشهر، وأمر المسلمين بأن يتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم بشرط ألا يصدر منهم ما يوجب نقص العهد أو يظاهروا علينا أحداً من الأعداء، وبين أن الالتزام بالعهد من التقوى، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى

(١) سورة التوبة، الآية (٧).

(٢) سورة التوبة، الآية (١).

(٣) سورة التوبة، من الآية (٢).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١﴾. والنبي ﷺ لما عقد الصلح مع المشركين في
الحديبية، ضرب ﷺ أروع أمثلة الصدق والوفاء بالعهد (٢).

ومن كمال الوفاء بالعهد الذي أمرنا به الله تعالى مع الكفار الذين
عاهدناهم على ترك القتال، أننا إذا خفنا منهم خيانة - بأن ظهر من قرائن
أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة - أن نرمي
عليهم عهدهم، ونخبرهم بذلك، ولا نغدرهم في شيء مما منعه موجب
العهد حتى نخبرهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً
فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٣). أي: إن خفت من قوم
قد عاهدتهم نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود فانبدذ إليهم
عهدهم على سواء، أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى
علمك وعلمهم متساويين بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا
عهد بينك وبينهم (٤).

(١) سورة التوبة، الآية (٤).

(٢) صلح الحديبية رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد ...، ٩٧٤ / ٢،
(٢٥٨١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، ١٩٥ / ١٢،
(١٧٨٥).

(٣) سورة الأنفال، الآية (٥٨).

(٤) انظر: تفسير السعدي ص ٣٢٤.

ويلحق بذلك إذا كان بيننا وبينهم عهد أبرمناه معهم لضعفنا، ثم قوينا بعد ذلك على قتالهم، فإننا ننبد إليهم العهد على سواء، ثم نقاتلهم؛ لأن هذه الآية وإن وردت في عهد الكفار الذين خفنا خيانتهم، إلا أنها تشمل كل عهد بيننا وبينهم نريد أن ننبد إليهم، سواء كان سبب النبد خوف خيانتهم، أم زوال السبب الذي حملنا على معاهدتهم، أم غير ذلك؛ لأنه تعالى علل الحكم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، وقاتل المعاهدين دون إعلامهم بنقض العهد خيانة، أيًا كان سبب النقض، والحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا^(١).

٢- تحريم قتل المعاهد بغير حق.

قد جاء الوعيد الشديد فيمن تعرض للمعاهد بالقتل، بقول النبي ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»^(٢). قال ابن حجر: (والمراد به: مَنْ له عهدٌ مع المسلمين، سواء كان بعقد جزية، أو هُدنة من سلطان، أو أمان من مسلم)^(٣)، بل إن قتله خطأ يجب فيه الدية والكفارة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢٥٥/٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، ٣/١١٥٥، (٢٩٩٥).

(٣) فتح الباري ٢٥٩/١٢.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴿١﴾. وإذا كان قتله خطأ فيه الدية والكفارة، فكيف إذا قتل عمداً؟! فإن الجرم يكون أعظم، والإثم يكون أكبر. وهذا دليل صريح على أن المعاهد معصوم الدم، فلا يجوز قتله إلا بحق، ويدخل في عموم الآيات الدالة على تحريم قتل النفس بغير حق.

٣- تحريم التعرض للمعاهد بأي نوع من أنواع الأذى.

قال ﷺ: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»^(٢)، وقال: «إن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوكم الذي عليهم»^(٣)؛ ولأن مضمون

(١) سورة النساء، من الآية (٩٢).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب: في تعشير أهل الذمة...، ٨/ ٢١١، (٣٠٥٠)، والبيهقي، كتاب الجزية، باب: لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئاً بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم...، ٩/ ٣٤٤، (١٨٧٣١)، وحسنه ابن حجر والعجلوني والألباني. انظر: موافقة الخبر الخبر ٢/ ١٨٤، كشف الخفاء ٢/ ٣٤٢، صحيح الترغيب والترهيب للألباني رقم (٣٠٠٦).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب: في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارة، ٨/ ٢٠٩، (٣٠٤٨)، والبيهقي، كتاب الجزية، باب: لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئاً بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم...، ٩/ ٣٤٣،

العهد الذي بيننا وبينهم ألا نتعرض لهم بأي نوع من أنواع الأذى، وقد قال ﷺ: «ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل»^(١)، والإخفار هو نقض العهد^(٢)، والتعرض له بالأذى من نقض العهد، وقد نص الفقهاء على ذلك. قال ابن قدامة^(٣) في الأمان: (الأمان إذا أعطي أهل الحرب حرم قتلهم ومالههم والتعرض لهم)^(٤). وقال في الإمام إذا عقد الهدنة مع الكفار: (وإذا عقد الهدنة فعليه حمايتهم من المسلمين وأهل الذمة؛ لأنه آمنهم ممن هو في قبضته وتحت يده، كما آمن من في

(١٨٧٢٨)، قال ابن كثير: (إسناده صالح)، وحسنه ابن حجر والألباني. انظر: إرشاد

الفقيه ٣/٢، ٣٤٣، تخريج مشكاة المصابيح ١/١٣٠، السلسلة الصحيحة رقم (٨٨٢).

(١) رواه البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من عاهد ثم غدر، ٣/١١٦٠، (٣٠٠٨)، ومسلم،

كتاب الحج، باب فضل المدينة...، ٩/٢٠١، (١٣٧١).

(٢) انظر: فتح الباري ٤/١٠٣.

(٣) هو: عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، المقدسي، ثم الدمشقي، الصالحي، الحنبلي،

أبو محمد، موفق الدين، أحد كبار الحنابلة، الفقيه، الزاهد، الأصولي، المحدث، عُرف

عند المتأخرين بـ(شيخ المذهب)، كان هيناً، ليناً، متواضعاً، محباً للمساكين، جواداً،

حسن الأخلاق، من أهم مصنفاته: المغني، والكافي، والمقنع، والعمدة كلها في الفقه،

وروضة الناظر في أصول الفقه، وغيرها، توفي سنة ٦٢٠ هـ. انظر ترجمته في: ذيل طبقات

الحنابلة ٢/٢٨١، سير أعلام النبلاء ٢٢/١٦٥، البداية والنهاية ١٣/٩٩.

(٤) المغني ١٣/٧٥.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
 قبضته منهم^(١). وقال في عقد الذمة: (وإذا عقد الذمة فعليه حمايتهم من
 المسلمين وأهل الحرب وأهل الذمة؛ لأنه التزم بالعهد حفظهم؛ ولهذا
 قال علي عليه السلام: (إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم
 كدمائنا) (٢)، وكذا نص غيره من الفقهاء على ذلك^(٣).

٤- الأمر بالبر والإحسان إليهم.

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
 أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾^(٤)، وهذه الآية أصل في معاملة غير المسلمين
 من المعاهدين والمستأمنين والذميين، وحكمها باقٍ غير منسوخ^(٥).
 قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز: (إنما معنى الآية المذكورة عند
 أهل العلم: الرخصة في الإحسان إلى الكفار، والصدقة عليهم، إذا كانوا
 مسالمين لنا بموجب عهد أو أمان أو ذمة)^(٦). فأمرنا الله تعالى ببرهم مع

(١) المغني ١٣/ ١٥٩.

(٢) المغني ١٣/ ٢٥٠.

(٣) انظر: منار السبيل ١/ ٢٨٢، فتح الوهاب ٢/ ٣١٤، الدر المختار ٤/ ١٢٨، الهداية شرح
 البداية ٢/ ١٣٦، شرح فتح القدير ٥/ ٤٤٦، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٨/ ٦٥٣.

(٤) سورة الممتحنة، الآية (٨).

(٥) انظر: تفسير الطبري ٢٨/ ٦٦.

(٦) نقد القومية العربية ص ٣٦.

شركهم، والبر هي كلمة جامعة لأعمال الخير^(١)، ومن ذلك أمره سبحانه ببر الوالدين ولو كانا مشركين، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (١٤) وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(٢)، ولما قدمت أم أسماء بنت أبي بكر - وهي مشركة - على ابنتها أسماء، استفتت أسماء النبي ﷺ هل تصلها؟ فقال ﷺ: «نعم صلي أمك»^(٣)، وكذلك صلة الرحم إن كان فيهم ذو رحم، وعبادة مرضاهم، كما عاد النبي ﷺ الغلام اليهودي الذي كان يخدمه، فأتاه النبي ﷺ فقعد عند رأسه، فقال له ﷺ: «أسلم»، فنظر الغلام إلى أبيه - وهو عنده - فقال له أبوه: أطع أبا القاسم. فأسلم الغلام، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»^(٤)، وعاد ﷺ عمه أبا طالب، وكان يدعوه إلى الإسلام ويقول له - بتلطف - : «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢٩٦/٣.

(٢) سورة لقمان، الآيتان (١٤ - ١٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركون، ٩٢٤/٢، (٢٤٧٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين ...، ١٢٣/٧، (١٠٠٣).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات ...، ٤٥٥/١، (١٢٩٠).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

أشهد لك بها عند الله»^(١)، وكذلك اتباع جنازتهم، وقد ذكر العلماء أنه لا بأس على المسلم أن يشيّع جنازة قريبه الكافر ولكن يكون في ناحية، ولا يقيم على قبره، ولا يدعو له؛ لأنه تعالى نهى عن الاستغفار للكفار، كما في قوله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٢)، وكذلك تعزيتهم عند المصيبة، فلا بأس أن يعزيهم ويأمرهم بتقوى الله تعالى وبالصبر، وأن يدعو لهم بالخير الذي أفضله الدخول في الإسلام، وكذلك قبول هداياهم، والإهداء لهم، وتهنئتهم بالزواج أو بالولد أو بقدوم غائب أو بالسلامة من مكروه ونحو ذلك، ولكن ليحذر من الوقوع فيما يقع فيه الجاهل من الألفاظ التي تدل على رضاه بدينه، كالتهنئة بشعائر الكفر المختصة به، فهذا حرام بالاتفاق^(٣). وكذلك مساعدة فقرائهم والمحتاجين منهم، وزيارتهم في منازلهم، وقبول دعوتهم، والدعاء لهم بالهداية، والتصدق عليهم ونحو ذلك، وهذا مما أجمع عليه المسلمون

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ١/ ٤٥٧،

(١٢٩٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما

لم يشرع في النزاع...، ١/ ٢٩٤، (٢٤).

(٢) سورة التوبة، الآية (١١٣).

(٣) انظر: أحكام أهل الذمة ١/ ٢٠٠ وما بعدها.

ولا مخالف لذلك ممن لهم رأي يعتد به^(١).

وكذلك الوصية لهم، والوقف عليهم بشرط أن تكون على معين أو جهة كالمساكين والفقراء وإصلاح الطرق والمصالح العامة أو على أولادهم ونحو ذلك، فيوصي لهم ويوقف عليهم على أنهم مساكين لا على أنهم كفار؛ لأن الكفر ليس موجباً للاستحقاق، لأن جعله كذلك مضادٌ لدين الله تعالى وحكمه، وهو في الوقت نفسه ليس مانعاً للاستحقاق؛ للآية السابقة، ولا يشترط الموصي أو الواقف بقاءهم على الكفر؛ لأنه شرط مناقض لدين الإسلام. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فبين أن عطية مثل هؤلاء إنما يعطونها لوجه الله، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «في كل ذات كبد رطبة أجر»^(٢))، فإذا أوصى أو وقف على معين وكان كافراً أو فاسقاً لم يكن الكفر والفسق هو سبب الاستحقاق، ولا شرطاً فيه، بل هو يستحق ما أعطاه وإن كان مسلماً عدلاً، فكانت المعصية عديمة التأثير، بخلاف ما لو جعلها شرطاً في ذلك على جهة الكفر والفساق، أو على الطائفة الفلانية بشرط أن يكونوا كفاراً أو فساقاً، فهذا

(١) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، على الرابط التالي:

<http://www.al-rman.com/islamlib/virwchp.asp?BID=308&CID=1>

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٥/٢٢٣٨، ٥٦٦٣، ومسلم،

كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، ١٤/٣٤٧، (٢٢٤٤).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
الذي لا ريب في بطلانه عند العلماء^(١).

٥- الأمر بالعدل في الحكم.

سواء حكمنا فيما بينهم أم بينهم وبيننا؛ لقوله تعالى لنبية ﷺ في اليهود: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢)، ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(٣). بل أمرنا بالعدل معهم حتى في أخذ حقنا منهم، ونهينا عن الاعتداء والظلم؛ ولهذا لا يجوز تكليف أهل الخراج أو الجزية ما لا يقدرُونَ عليه، ولا تعذيبهم على أدائها، ولا حبسهم وضربهم؛ ولهذا لما مر هشام بن حكيم ابن حزام على أناس من الأنباط^(٤) بالشام قد أقيموا في الشمس، وصب على رؤوسهم الزيت. فقال: ما شأنهم؟ قالوا: يعذبون في الخراج، -وفي رواية: حبسوا في الجزية-. فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ

(١) مجموع الفتاوى ٣١/٣١، وانظر: أحكام أهل الذمة ١/٢٩٩.

(٢) سورة المائدة، من الآية (٤٢).

(٣) سورة المائدة، من الآية (٨).

(٤) الأنباط: هم فلاحو العجم. انظر: شرح النووي لمسلم ١٦/٢٥٤.

يقول: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا»^(١). ولما قَدِمَ أحد عمال عمر رضي الله عنه عليه بأموال الجزية، وجدها عمر رضي الله عنه كثيرة، فقال لعامله: «إني لأظنكم قد أهلكتم الناس» قالوا: لا والله، ما أخذنا إلا عفواً صفواً. قال: بلا سوط ولا نوط؟^(٢). قالوا: نعم. قال: (الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني)^(٣). ولما تدانى الأجل بعمر رضي الله عنه لم يفتَهُ أن يوصي المسلمين برعاية أهل الذمة فقال: فيما أوصى به الخليفة من بعده: (وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ)، أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يُقاتَلَ من ورائهم، ولا يُكَلَّفوا فوق طاقتهم)^(٤).

تنبيه:

هذه الأحكام المتعلقة بالعهد بيننا وبينهم لا تتعارض مع الأمر

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق، ٢٥٣/١٦، (٢٦١٣).

(٢) قوله: (بلا سوط ولا نوط) أي: بلا ضرب ولا تعليق. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة ٧٠٥/٣.

(٣) رواه أبو عبيد، القاسم بن سلام في كتابه الأموال، باب اجتناء الجزية والخراج وما يؤمر به من الرفق بأهلها...، ١/١٠٠، (١١٨)، وقد تناقله عنه الفقهاء في كتبهم، مثل: ابن قدامة في المغني ٢٥٣/١٣، وابن القيم في أحكام أهل الذمة ٣٥/١.

(٤) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ٤٦٩/١، (١٣٢٨).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

بإهانتهم، فقد أمرنا الله تعالى بإهانة الكفار، وعدم إكرامهم؛ لأنهم ما قدروا الله تعالى حق قدره، ووصفوه بصفات النقص، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(١)، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(٢)، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣)، فكيف نكرم من يقول في حق الله تعالى مثل ذلك، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾^(٤)، ولذلك أمرنا الله تعالى ورسوله ﷺ بإهانتهم وإصغارهم وعدم إكرامهم، قال تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٥)، أي: ذليلون حقيرون مهانون^(٦)، وقال ﷺ: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه»^(٧)، أي: لا تتنحوا لهم في الطريق الضيق لتوسعوا لهم؛ إكراماً لهم، بل استمروا في سيركم، واجعلوا الضيق إن كان هناك ضيق عليهم،

(١) سورة التوبة، من الآية (٣٠).

(٢) سورة المائدة، من الآية (٦٤).

(٣) سورة آل عمران، من الآية (١٨١).

(٤) سورة الحج، من الآية (١٨).

(٥) سورة التوبة، من الآية (٢٩).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٢٤٨.

(٧) رواه مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم،

٢١٠/١٤، (٢١٦٧).

وليس المعنى: إذا لقيتموهم في طريق واسع فألجئوهم إلى حرفه حتى يضيق عليهم؛ لأن هذا ليس من هديه ﷺ مع يهود المدينة، ولا من هدي صحابته بعد فتحهم الأمصار، ولأن في ذلك أذى لهم، وقد نهينا عن أذاهم بغير سبب^(١). وليس في الحديث تنفير عن الإسلام، بل فيه إظهار لعزة المسلم، وأنه لا يذل لأحد إلا لربه تعالى^(٢). ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم^(٣).

كما أن هذه الأحكام لا تتعارض مع النهي عن مودتهم وموالاتهم، الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(٥)؛ لأن وجوب البراءة من الكافر وتحريم مودته

(١) فتح الباري ١١/ ٤٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخنا/ محمد العثيمين ٣/ ٣٨ - ٣٩.

(٣) رواه البيهقي، كتاب الجزية، باب الإمام يكتب كتاب الصلح على الجزية، ٩/ ٣٣٩، (١٨٧١٧)، وقال عنه ابن كثير: (رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم

الأشعري). تفسيره ٢/ ٣٤٨.

(٤) سورة المجادلة، من الآية (٢٢).

(٥) سورة الممتحنة، من الآية (١).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

ومولاته لا يعني جواز الاعتداء عليه؛ لأننا أمرنا بحسن التعامل معه في الظاهر، ونهينا عن مودته في الباطن. قال الشنقيطي: (قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(١)، هذه الآية الكريمة تدل على الأمر ببر الوالدين الكافرين، وقد جاءت آية أخرى يفهم منها خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٢)، ثم نص على دخول الآباء في هذا بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾^(٣)، ووجه الجمع بينهما: أن المصاحبة بالمعروف أعم من المودة؛ لأن الإنسان يمكنه إسداء المعروف لمن يوده ومن لا يوده، والنهي عن الأخص لا يستلزم النهي عن الأعم، فكأن الله حذر من المودة المشعرة بالمحبة والموالاتة بالباطن لجميع الكفار، يدخل في ذلك الآباء وغيرهم، وأمر الإنسان بألا يفعل لوالديه إلا المعروف، وفعل المعروف لا يستلزم المودة؛ لأن المودة من أفعال القلوب لا من أفعال الجوارح، ومما يدل لذلك: إذنه ﷺ لأسماء بنت أبي بكر الصديق أن تصل أمها وهي كافرة^(٤). وقال نحوه الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه

(١) سورة لقمان، من الآية (١٥).

(٢) سورة المجادلة، من الآية (٢٢).

(٣) سورة المجادلة، من الآية (٢٢).

(٤) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص ١٨٢.

الله تعالى^(١).

أما الذين لم يسالمونا ورضوا بخيار القتال فمع كون السيف هو سيد الموقف بيننا وبينهم إلا أن الإسلام أمر بالتعامل معهم تعاملًا مبنياً على العدل والإحسان والرحمة والصدق ومكارم الأخلاق، ولكن في المواضع التي يمكن أن يتأتى فيها ذلك، ويتضح ذلك من خلال الأحكام المتعلقة بهم، نذكر منها:

١. عدم الغدر والتمثيل بهم وعدم قتل من ليس أهلاً للقتال.

نهى الرسول ﷺ عن الغدر والتمثيل بالكفار كما نهى عن قتل النساء والصبيان ومن ليس من أهل القتال كما في حديث بريدة السابق، حيث قال في جملة ما يوصي به أمير الجيش إذا بعثه: «ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا»^(٢)، ولما وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ نهى ﷺ عن قتل النساء والصبيان^(٣)؛ لأنهم ليسوا بأهل للقتال، فلا يُقاتل إلا المقاتل؛ ولهذا لما مرَّ ﷺ على امرأة مقتولة أنكر هذا وقال

(١) على موقعه التالي:

<http://www.binbaz.org.sa/mat/1948>

(٢) سبق تخريجه ص ٣٤٦.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب: قتل النساء في الحرب، ٣/ ١٠٩٨، (٢٨٥٢)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب: تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، ١٢/ ٧٣، (١٧٤٤).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما كانت هذه تقاتل»^(١). قال النووي في شرح حديث النهي عن
قتل النساء والصبيان: (أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث وتحريم
قتل النساء والصبيان إذا لم يُقاتلوا)^(٢).

وأما قتلهم بلا قصد كما لو أننا قذفنا العدو بالمنجنيق أو بالقنابل - كما
في عصرنا الحاضر - ثم قتلنا من لم يقاتل كالنساء والصبيان فليس هذا
من باب العدوان عليهم؛ لأننا لم نقصدهم، وقد لا يحصل الانتصار
على الأعداء إلا بذلك فيكون ذلك من باب الضرورة، والضرورات
تبيح المحظورات؛ ولهذا نصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف،
وهو يعلم أن فيهم النساء والصبيان والعجزة وغيرهم^(٣).

(١) رواه النسائي، باب: قتل العسيف، ١٨٦/٥، (٨٦٢٥)، وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب:
الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان، ٩٤٨/٢، (٢٨٤٢)، والإمام أحمد، ١١٥/٢،
(٥٩٥٩)، والحاكم، كتاب الجهاد، ١٣٣/٢، (٢٥٦٥). وصححه الحاكم والطحاوي
والألبياني.

انظر: المستدرک ١٣٣/٢، شرح معاني الآثار ٢٢٢/٣، صحيح ابن ماجه رقم (٢٣١١).
(٢) شرح النووي على مسلم ٧٣/١٢.

(٣) رواه أبو داود في المراسيل عن ثور بن يزيد الحمصي عن مكحول مرسلاً، (٣٣٥)، ورواه
الترمذي فلم يذكر مكحولاً بل ذكره معضلاً عن ثور بن يزيد الحمصي، أبواب الاستئذان
والآداب، باب ما جاء في الأخذ من اللحية، ٤٥/٨، (٢٩١٢)، ووصله البيهقي في السنن
الكبرى عن أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كتاب السير، باب قطع الشجر وحرق المنازل، ١٤٤/٩،

٢ - إكرام رسلهم وعدم إيذائهم.

ضرب الإسلام أروع الأمثلة في حماية رسل الكفار وإكرامهم، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء ابن النواحة وابن آثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ فقال لهما: «أتشهدان أني رسول الله». قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. فقال النبي ﷺ: «آمنت بالله ورسله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما». قال عبد الله: «فمضت السنة أن الرسل لا تقتل»^(١). وذكر الشوكاني أن هذا الحديث يدل على تحريم قتل الرسل الواصلين من الكفار، وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة الإمام أو سائر المسلمين^(٢).

٣ - الرفق بأسراهم والإحسان إليهم.

كان الأسرى عند الأمم السابقة قبل الإسلام يُذبحون أو يُقدمون قرابين للآلهة، وكانوا يعاملون بقسوة لا هوادة فيها، فكانوا ضحية التنكيل

(١٨١٩)، وذكر ابن حجر أن العقيلي وصله عن علي رضي الله عنه بسند ضعيف. انظر: بلوغ

المرام ٤/ ١٠٥، زاد المعاد ٣/ ٤٩٦.

(١) رواه الإمام أحمد ١/ ٣٩٦، (٣٧٦١)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب: في الرسل،

٣١٣/ ٧، (٢٧٥٨)، والدارمي، كتاب السير، باب: في النهي عن قتل الرسل، ٢/ ٦٨٤،

(٢٤٠٨). وحسنه ابن حجر، وصححه الألباني. انظر: تخريج مشكاة المصابيح ٤/ ٧٢،

صحيح أبي داود رقم (٢٧٦١).

(٢) انظر: نيل الأوطار ٩/ ٢٠٦.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

والتعذيب والقتل والصلب والإهانة، والعرب تأثروا في جاهليتهم بعادات مجاورهم في ذلك، فلم تكن معاملة الأسير عندهم تتصف بصفات الرحمة والإنسانية، فلما جاء الإسلام ضرب القدح المعلى في الرفق بالأسارى والرحمة بهم والعناية بشأنهم^(١)، فأمر بالرفق بالأسير وإطعامه والإحسان إليه حتى يحكم في شأنه إمام المسلمين^(٢)، قال تعالى مبيناً صفات عباده المؤمنين وحاثاً عليها: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٣) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا^(٤) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا^(٥)، قال ابن جرير^(٦): ﴿وَأَسِيرًا﴾: هو الحربي من أهل دار الحرب، يؤخذ قهراً بالغلبة، أو من أهل القبلة يؤخذ فيحبس بحق، فأثنى الله على هؤلاء الأبرار بإطعامهم هؤلاء تقرباً بذلك

(١) انظر: آثار الحرب ص ٤٠٤.

(٢) انظر: الخراج ص ١٤٩.

(٣) سورة الإنسان، الآيات (٨ - ١٠).

(٤) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، أبو جعفر، من كبار الأئمة، له مذهب مستقل اندثر في القرن الخامس الهجري، قال عنه الذهبي: ((كان من أفراد الدهر علماً وذكاء وكثرة تصنيف، قل أن ترى العيون مثله))، من أهم مصنفاته: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تاريخ الأمم والملوك، لطيف تهذيب الآثار، آداب القضاة، وغيرها، توفي سنة ٣١٠ هـ. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤، طبقات الفقهاء ص ٩٣، وفيات الأعيان ٣/٣٣٢

إلى الله، وطلب رضاه، ورحمة منهم لهم^(١). وعن أبي عزيز بن عمير أخى مصعب بن عمير قال: (كنت فى الأسارى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيراً». وكنت فى نفر من الأنصار، وكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز؛ بوصية رسول الله ﷺ إياهم)^(٢)؛ لأن الخبز عندهم أطيب من التمر.

٤ - دفن قتلاهم.

السائد فى حروب المسلمين مع أعدائهم أن يتولى كل فريق البحث عن قتلاه بعد انتهاء المعركة ثم يأخذهم ويقوم بدفنهم، فإذا لم يقم العدو بدفن قتلاه، فإن المسلمين يقومون بذلك فيحفرون له حفرة ويوارونه فيها؛ حتى لا يتأذى المسلمون برائحته ولا يتأذى أهله برؤيته، وليس هذا من باب إكرامه؛ لأنه كافر لا حرمة له، فيواري كما وارى النبي ﷺ قتلى المشركين يوم بدر، حيث سُحبوا وألقوا فى قليب بدر^(٣). ومن سنته ﷺ أنه كان لا يمر بجيفة إنسان إلا أمر بدفنه، لا يسأل أمسلم هو أم

(١) تفسير الطبري ٢٩/٢٠٩.

(٢) رواه الطبراني فى الكبير، باب من يكنى أبا عزيز، ٢٢/٣٩٣، (٩٧٧). وحسنه الهيثمي فى مجمع الزوائد ٦/٨٩.

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ١٢/٢١٠، (١٧٩٤).

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري
كافر^(١). وهذا فيه إحسان إلى الميت وإلى الأحياء.

٥ - عدم التفريق بين الأم وولدها بعد سبيهم.

قال ﷺ: «من فرق بين الوالدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»^(٢)، قال الموفق ابن قدامة: (أجمع أهل العلم على أن التفريق بين الأم وولدها الطفل غير جائز) يعني في السبي^(٣)؛ لما فيه من الإضرار بالوالدة والولد.

هذا هو الإسلام، وهذا هو السلام الذي جاء به مع أعدائه، سواء أعداء الداخل أم أعداء الخارج، وهذا هو عدله وإحسانه، وهذه هي رحمته ورفقته، وتلك هي عظمته ووسطيته؛ ولهذا قال الله تعالى فيه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٤)، فقد جعل تعامل المسلم مع عدوه تعاملًا

(١) رواه الحاكم، كتاب الجنائز، ١/ ٥٢٦، (١٣٧٤)، والدارقطني، كتاب السير، ٤/ ١١٦،

(٤١)، والبيهقي، كتاب الجنائز، باب وجوب العمل في الجنائز من الغسل والتكفين....،

٣/ ٥٤٢، (٦٦١٧). وصححه الحاكم. انظر المستدرک ١/ ٥٢٦.

(٢) رواه الإمام أحمد، ٥/ ٤١٢، (٢٣٥٤٦)، والترمذي، أبواب البيوع، باب ما جاء في

كراهية أن يفرق بين الأخوين أو بين الوالدة وولدها في البيع، ٤/ ٥٠٤، (١٣٠١)،

والحاكم، كتاب البيوع، ٢/ ٦٣، (٢٣٣٤) وحسنه الترمذي وصححه الحاكم. انظر:

جامع الترمذي ٤/ ٥٠٤، المستدرک ٢/ ٦٤.

(٣) المغني ١٣/ ١٠٨.

(٤) سورة البقرة، من الآية (١٤٣).

وسطاً، لا غلو فيه ولا جفاء، ولا إفراط فيه ولا تفريط. قال جوستاف لوبون: (ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب)^(١)، والحق ما شهدت به الأعداء.

هذا ما أردت كتابته في هذا الموضوع، فما فيه من صواب فمن الله وحده، وله الفضل والمنة بذلك، وما فيه من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وسيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته واقتفى أثره إلى يوم الدين.

(١) انظر: آثار الحرب ص ١٤٥.

الخاتمة

وتشتمل على أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث وهي كما يلي:

١- أن السلام في اللغة بمعنى النجاة والتخلص مما لا يُرغب فيه، وما اشتق من مادته يرجع إلى هذا المعنى، وأنه أطلق في الشرع على أربعة أمور، على اسم الله تعالى، وعلى السلامة من الآفات، وعلى التحية، وعلى الصلح، فهو من الألفاظ المشتركة التي يحدد معناها السياق، والإطلاق الأخير هو المراد هنا، وهو المراد عند إطلاقه في العصر الحاضر.

٢- أن أعداء الإسلام صنفان، أحدهما: الخارجون عليه من أبنائه (أعداء الداخل)، سواء كانوا من أهل الحق الذين لا يكفرون بالكبيرة، أم من أهل الباطل الذين يكفرون بها، وثانيهما: الكافرون الذين لا يدينون به (أعداء الخارج). سواء كانوا من أهل العهد (وهم الذميون والمعاهدون والمستأمنون)، أم كانوا من أهل الحرب.

٣- أن الإمام تثبت إمامته إما بإجماع أهل الحل والعقد من المسلمين، أو بعهد إمام قبله إليه، أو بالقهر وقوة السيف، وأنه إذا ثبتت إمامته حرم الخروج عليه إلا بشروط خمسة، وهي أن نعلم أنه وقع في كفر،

وأنه كفر أكبر، وأنه كفر بواح، وأن يدل الدليل القطعي على أنه كفر أكبر، وأن تكون عندنا القدرة على إزالته، ومن خرج عليه دون توافر هذه الشروط فهو عدو لنا.

٤- أن الإسلام سعى إلى السلام مع أعداء الداخل بكل السبل؛ لأن المقصود رجوعهم إلى الحق وليس قتلهم، بدليل الأحكام التي شرعها قبل قتالهم، كمراسلتهم، ووعظهم، وإمهالهم، وعدم بدئهم بالقتال. وكذا التي شرعها في أثناء قتالهم، كعدم قتل من حضر معهم وهو لا يقاتل، وعدم قتلهم بما يعم إتلافه. وكذا التي شرعها بعد قتالهم، سواء في حال تغلبنا عليهم كعدم قتل مدبرهم، والإجهاز على جريحهم، وغنم أموالهم، وسبي ذراريهم، والأمر بإطلاق أسراهم وعدم قتلهم، أم في حال تغلبهم علينا كوجوب مبايعة إمامهم الذي تملك علينا بالغلبة.

٥- أن الإسلام سعى إلى السلام مع أعدائه الكفار قبل أن نبداهم بالقتال، وذلك بعرضنا عليهم خيارات ثلاث على الترتيب، وهي: الدخول في الإسلام الذي هو السلام الحقيقي، فإن أبوا عرضنا عليهم بذل الجزية، فإن أبوا قاتلناهم، وكل هذه الخيارات هي سلام لهم، إما باعتبار ذاتها أو مآلها.

السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية ————— د. خالد بن سليم الشراري

٦- أن الأرض وما فيها من خيرات لله تعالى، وكتب أن الذي يرثها عباده الصالحون، وغزونا للكفار إنما هو طلب لاسترداد الحق الذي جعله الله لنا، وليس اعتداءً عليهم.

٧- أن القتال في الإسلام يجب ابتداءً ودفاعاً، وأن المقصود من قتال الكفار هو تطبيق أحكام الله تعالى على أرضه وبين عباده، وإبلاغ دينه، وإقامة الحجة على الناس، وليس إكراههم على الدخول فيه.

٨- أنه لا منافاة بين كونه ﷺ أرسل رحمة للعالمين، وكونه بعث بالسيف حتى يعبد الله وحده؛ لأن قتال الكافر هو من باب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وهذا من الرحمة به.

٩- أن الإسلام سعى إلى السلام مع أعدائه أهل العهد من الكفار، بدليل الأحكام التي شرعها في حقهم، كالالتزام بالعهد ما داموا ملتزمين به، وتحريم أذيتهم أو قتلهم بغير حق، والأمر بمعاملتهم بالعدل والإحسان.

١٠- أنه لا منافاة بين الأمر بالعدل والإحسان إلى المعاهدين من الكفار والأمر بإهانتهم؛ لعدم المنافاة بين إعطاء الشخص حقوقه والإحسان إليه وبين عدم إكراهه. كما أنه لا منافاة بين الأمر بالعدل والإحسان إلى المعاهدين من الكفار والنهي عن مودتهم وموالتهم؛

لأن المعاملة بالعدل والإحسان من الأعمال الظاهرة، والمودة
والموالة من الأعمال الباطنة.

١١- أن الإسلام سعى إلى السلام مع الحربيين من الكفار أيضاً، بدليل
الأحكام التي شرعها في حقهم، كالنهي عن الغدر بهم، والتمثيل بهم،
وقتل من ليس أهلاً للقتال، والأمر بإكرام رسلهم، والرفق بأسراهم،
ودفن قتلاهم، وعدم التفريق بين الأم وولدها إذا وقعوا في الأسر.